طريق وصايا المسيح

الجزء الثالث من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

حول القنوط ورحمة الله

كيف يمكن ألا تقع النفس في القنوط حين تبقى لوحدها مع خطاياها وأهوائها وضعفاتها؟ كيف لا تقع في اليأس عندما لا ترى داخلها سوى الشر والدَّنس، وليست لديها القوة للخروج من حالة الهلاك هذه ولا يمكنها حتى رؤية المخرج الذي يمكن أن تسلكه؟ ولكنْ، عندما تلتفت إلى الله وتُكشَف لها أعماق رحمته للبشر وطُرق عنايته الصالحة التي تُخلّص الإنسان التائه، وعندما تبدأ بطلب خلاصها في لجة الرحمة، عندما تسلك بالإيمان وحده سبيل عنايته التي تخلصنا بشكلٍ غير موصوف، فإنها تحطّم كل الشكوك التي في داخلها، وتشعر عندها بالقوة والسلام والتعزية. عند ذلك يغادر اليأسُ الكئيب النفسَ، وتتدحرج صخرة انعدام الحس بعيداً.

السلام والفرح هما ثمرة التواضع. هنا هو الميناء الذي وجد فيه كل النساك راحتهم، كل الذين حزنوا في نفوسهم، وكل الذين عطشوا إلى الخلاص. لا تخشَ خسارة كل شيء لكي تكتسب التواضع، لا تخشَ اجتياز صحراء اليأس حيث تخسر النفس كل شيء وتكون النفس الفقيرة العديمة الحس عاجزة عن الحراك. من المرجح أن يبلغ المرء التواضع على هذا الطريق عبر إنكاره لذاته.

في المحبة

المحبة حسنة لأنها تمنح الحرية. إنها لا تُحَدّ في حيث تستطيع أن تلاحق مَن تحب، بل على العكس فإنها تتبعهم حتى إلى الجحيم. ولهذا فهي قوية، وقد أصعدت أكثر من مرة أحبائها من قعر الجحيم.

إذا كنت تحب قريبك لأجل ذاتك، فلا بد أنك تريد إتمام رغباتك وإرادتك الجسدية. وإذا كنت تحب قريبك لأجل ذاته، فلا بد أن تتمم إرادته ورغبته. أما إذا أحببت قريبك لأجل الرب، فعندها لا بد أن تسعى جاهداً إلى إتمام مشيئة الله في علاقتك به وأن تسلك بلا لومٍ في برِّ الله. فلنُحبَّ قريبنا لأجل الربِّ. يجب أن ننفصل، لا عن البشر ولا عن الأشياء، بل عن ولعِنا بهذا أو ذاك.

حول رحمة الله

إن رحمة الله تغفر خطايانا وتحمل ضعفاتنا وتحتمل آثامنا. نحن لسنا بحاجةٍ إليها وحسب بل أيضاً إلى بركات الله التي تنقّينا من آثامنا وتنير أذهاننا لمعرفة مشيئته وتقوّي روحنا لنلتمس ما يرضيه وتوجّه إرادتنا إلى العمل بوصاياه.

عندما تدرك النفس كم هي بحاجة إلى بركات الله وترى كم أنَّ هذه البركات تنفعنا في حياتنا الداخلية والخارجية، فإنَّها تتمكن من الصلاة إلى الله بقلب منسحقٍ وشاكر، وفقط عندها تكون الصلاة هي الكلمة الحية للنفس. اقتيد النبي القديس داوود إلى معرفة الرب الرحيم والمُحسن. لذلك كانت صلاته مليئة بالشكران والتمجيد والانسحاق. وحدها معرفة الإنسان بخطيئته تقوده إلى البحث عن رحمة الله، فقط معرفته بسقمه وعجزه وضعفه الكلي تقوده إلى الربِّ الكليِّ الرحمة.

حول الصمت

الصمت مثمر أكثر من أي كلام.

الصمت كلامٌ وفكرٌ وإحساس: هذا هو نوع الصمت المرغوب به، لأن كل ما تقوله وتفكر به وتشعر به أهوائي وخاطئ

سلام النفس

إن سلام النفس لا يوجد دوماً في السلام والهدوء الخارجيين. بل على عكس ذلك، غالباً، إنْ لم يكن دائماً، ما تثور في النفسِ عاصفةٌ من الأهواء خلال هذا السلام الخارجي. إذا كانت هناك حاجة للتعفف في وقت التشتت، فإن هنالك بالأكثر حاجة إلى الصبر في وقت العزلة. الصبر هو أيضًا قوة حيوية للنفس مع الفهم الروحي، وتمييز التغيرات في الأشياء وكل الأشياء الأرضية، مع الإيمان في القلب وتواضع الروح. الصبر يمنح النفس الثبات؛ يتحول إلى شجاعة ومن ثم لا يعود إحساسًا سلبيًا بل إحساسًا فاعلاً.

حول مشيئة الله

قلبنا فاسدٌ جداً وقد أظلمته الخطيئة كثيراً. إن حياتنا متشابكة للغاية مع رذائلنا، وقد أفسدتها النوايا الذاتية لقلبنا المحب للخطيئة. لدرجة أننا لسنا فقط عاجزين عن إتمام مشيئة الله أو حتى معرفتها، بل وأيضاً لا نسمح لمشيئة الله القدوسة أن تعمل فينا وفي حياتنا. يقول النبي: " الْقِدِّيسُونَ الَّذِينَ فِي الأَرْضِ وَالأَفَاضِلُ كُلُّ مَسَرَّتِي بِهِمْ." (مزمور ١٦:٣). أترون أنه في النفوس المقدسة، وفقط في تلك النفوس، يتمم الرب مشيئته؟ لا يوجد في تلك النفوس ما يعيق مشيئة الله. الخاطئ الذي يعيش في أهوائه يحيا دوماً في تعارض مع مشيئة الله. من الجيد أن يقبل ما يسمح الله أن يحتمله إذا ما تواضع بسماح الله [أي ما يسمح الله بحدوثه له كالأمراض مثلاً]. إن هذا الخضوع المتواضع لما يسمح به الله علامة الخاطئ التائب.

حول الحياة الرهبانية

إن الهدف يوجه ويميز كامل حياة الإنسان المستقبلية ونشاطه، ولذلك فهو في غاية الأهمية.
إذا ما نظرت إلى الجانب الخارجي من الحياة، وبسبب أحزان الحياة رغبت في إيجاد السلام في هدوء الحياة الرهبانية، فإنك مخطئ. إن للدير أحزانه الخاصة ولربما تكون أشد وطأة من تلك التي في العالم. إذا فهمت بروحك بطلان الحياة الأرضية ولم تشعر نفسُك بالرضى هناك، ورغبت في إيجاد الملء في الحياة الروحية، وأن تحيا لأجل الحياة الأبدية، لأجل الله، عندها فإن ما تتوق إليه صحيح.
يُطلب الكثير من الإنسان الذي يروم الخلاص. إن جدران الدير والثوب الأسود، بل وحتى جميع الأتعاب الخارجية للحياة الرهبانية لا تعني شيئاً بدون العمل الداخلي الذي هو الغاية من الحياة الرهبانية. إنه ينطوي على إعادة ولادة كاملة للإنسان بكلّيته، وفي إزالة كل الأمور الأرضية، وفي إماتة كل ما يخصُّه من منطق بشري وأحاسيس بشرية، لكيما يحيا في الله ولأجل الله. بقدر بعد الإنسان عن الله، هكذا تكون الهاوية التي تفصله عن الله، وبهذا المقدار يكون عظيماً عمل إعادة توحيدهما. هذا الطريق ليس صعباً فقط، بل وإنه ليس متاحاً للجميع، وليس مفتوحاً أمام الجميع، ولا يجده الجميع، ولا يسعى إليه الجميع، بل ولا يريده الجميع.
إن هذا الطريق يرغب فيه ويسعى إليه ويجده فقط أولئك الذين دعاهم إليه الربُّ نفسُه. تشعر النفس بدعوة الله عندما لا تكتفي بأي شيء في الحياة الأرضية، وعندما تشعر باستمرار بنوع من عدم الاكتمال، وعندما تسعى إلى اكتشاف الشعور بالخلود في ذاتها ما يقودها إلى الحياة الأبدية ويقربها من الربِّ الأزلي. لا تستطيع النفس مقاومة هذه الدعوة الإلهية: تصبح طائعة ولن تتوقف عن البحث عن الحياة الداخلية والشركة مع الرب إلى أن تجد الطريق المؤدية إلى هذا الهدف، ولن تتوقف عندها بل ستواصل العمل في حقل قلبها، ستذهب أبعد فأبعد بالرغم من أن الطريق يصبح أكثر صعوبة.

إذا كنت لا تقبل بهذا العمل الداخلي ولا تطلب هذا الطريق، عندها لا تذهب إلى الدير. يدخل الناس الدير لكي يُشكلوا أرواحهم في مدرسة الحياة الروحية هذه، ولإيجاد مرشدين وكل الوسائل لاجتياز هذه الحلبة الروحية.

يجب أن نحب أنفسنا

يجب أن نتعلم أيضاً كيف نحب أنفسنا. إنَّه بالتأكيد أمرٌ يجب أن نعمل عليه بالحقيقة. مثلاً، يكون المرء في بعض الأحيان غير عادلٍ تجاه نفسه، فيطلب من نفسه أكثر مما يستطيع أن يعطي. يطلب الغلبة على أهوائه وأحزانه وهمومه، ويغتاظ من نفسه حين يرى بأنَّه يُغلب من تلك الأهواء عينها التي كان قد قرر تركها. ولكنْ، هل سخط المرء على نفسه مبرر؟ كلا، فالإنسان لن يتمكن أبداً من التغلب على أهوائه بقواه الذاتية. إن تجاوز الأهواء فينا يتمّ بقوة الله. هذه القوة كامنة في وصاياه، وعندما يتخذها الإنسان ملكًا له بمعونة الله، عندما تعيش في قلبه، فإن الخطيئة والأهواء تضعف ويتوقف عملها في قلبه تماماً. علينا دوماً أن نُحيِيَ في قلوبنا الرغبة بالعيش طبقاً لوصايا المسيح. يجب أن نلتمس معونته في الصلاة، ونتواضع في انحرافاتنا ونحتمل ضعفنا ولا نستاء من أنفسنا بسبب هذا الضعف. ففي نهاية الأمر، إذا لم أكن قويةً كفايةً لتخطي الضعف بنفسي، فلماذا أطالب نفسي بشيءٍ وحده الرب يستطيع أن يعطيني إياه؟ لماذا أحزن نفسي لأني لا أتفوق على نفسي؟ إن طلب النجاح الروحي هذا يكشف عن كبريائنا. فلننتظر كل شيءٍ من الرب الواحد ونتواضع بعمقٍ في ضعفاتنا وخطيئتنا.

حول النفس والجسد

ترتبط أرواحنا ارتباطًا وثيقًا بالجسد بحيث يشكلان كائنًا واحدًا لا ينفصل. إذا قمنا بتطوير كل القوى الحيوانية في أنفسنا، فسوف نصبح وحشيين. وأعني بالقوى الحيوانية ليس القوى الجسدية فحسب ، بل أيضًا جميع قوى النفس المعطاة للحياة الأرضية. فإذا سعينا، بعون الله، إلى تنمية قوى الروح الخالدة داخل أنفسنا، فسيكون ذلك بالتأكيد على حساب القوى الحيوانية، بل وسيتناقض مع جميع نواميس ومتطلبات طبيعتنا الحيوانية. وحدها الروح التي تقويها نعمة الله يمكنها أن ترتفع فوق هذه الطبيعة.

يجذبنا الناموس الطبيعي إلى الأفعال المتأصلة فيه، بغض النظر عما إذا كانت مقدسة أم خاطئة، حتى دون طلب موافقتنا. هذا الانجذاب لناموس طبيعتنا الحيوانية يُسمى طبيعيًا في طبيعتنا البشرية الساقطة. إنه أمر غير طبيعي بالنسبة لأرواحنا، لأنه يتسلط عليها ويقمعها ويقتلها.

إذ نعيش وفقًا لنواميس طبيعتنا الساقطة، نكون ما زلنا نشعر أحيانًا بشوق غير قابل للتفسير، وبعدم الرضا، وبالرغبة في شيء أسمى، والتحرر من كل ما يشكل حياتنا الأرضية. إنَّ هذا الشوق وهذه الرغبة يكشفان عن حاجة أرواحنا. إذا أخفضنا هذا الصوت في أنفسنا، فسيصمت تماماً أو يتحول إلى شعور باليأس. ولكنْ لماذا هو ضعيف جداً؟ لأننا بسبب سقوطنا لا نستطيع القيام بما هو صالح بقوتنا الذاتية، وحدها نعمة الله تستطيع أن تعمل الصلاح فينا عندما نعطي مجالاً للنعمة بتواضعنا وإيماننا. ولهذا تُسمى الحياة الروحية "فوق الطبيعة". علينا أن نعمل على أنفسنا، وعلينا أن نرى ما يفوق المصالح الأرضية، وعلينا أن نؤمن أن كل شيء مقدس يتم الحصول عليه فقط بنعمة الله – ولهذا السبب علينا أن نتواضع.

طريق وصايا المسيح

بالرغم من أنَّه على جميع المسيحيين أن يتبعوا طريق وصايا المسيح، طريق التخلي عن أهوائنا الخاطئة، إلا أن هناك اختلافًا في الأعمال الروحية وطرق الحياة، إذا جاز التعبير. يمكن لكلٍّ من

الحبيس والمبتدئ والعلماني أن يتوصَّلوا إلى نكران إرادتهم، لكنهم يحققون هذا الهدف بطرق مختلفة. الأول يـرى مشيئة الله الـتي يتخلى أمامهـا عن إرادتـه في ضـوء كلمـة الله؛ والثاني – بإرادة أبيه الـروحي. والثالث – في ظــروف الحياة. نقــاوة القلب ممكنة لثلاثتهم، لكن الأول يســعى إليهــا بالصــلاة غــير المنقطعة، والثاني بعمل الطاعة والاعتراف بالأفكار، والثالث بالإنجاز الصادق لعمله وواجباته العائلية. كلهم يحققـون نفس الهـدف ولكنْ بطـرق مختلفـة. ينطبـق الأمر نفسـه على جميـع شـؤون الحياة. لقـد ذكرت الخصائص الرئيسية، وأشرت إليها بإيجاز، لكني أريد أن أقول لك شيئًا واحدًا فقط: أخشى أنك قد تنحرف كثيرًا في الزهد. الرهبنة ليست أكثر من شكل خارجي للحياة، ومهما كانت صالحة، فلا يجب أن تكـون هي الغاية النهائية لبحثنا. اجتهـد في الحصـول على أفضـل المـواهب، يقـول الرسـول (راجـع ١ كـور ١٢: ٣١). كل الكـنز الـروحي مخبـوء في وصـايا المسـيح: أن نحب الله قبل كل شيء، وقريبنا مثل أنفسـنا.كم نحتاج إلى إنكار أهوائنا لكي نحب الله أكـثر من كل الأرضـيات – أكـثر من أنفسـنا! كم علينا أن نجاهـد من أجـل أنفسـنا لكي نحب قريبنا كنفسـنا! تحـوي هاتـان الوصيتان على كل طهـارة النفس وكل قداستها.

كرامة الإنسان ونبله

إن كرامـة الإنسـان ونبلـه لا تكمن في الامتيازات الـتي ورثهـا عن أسـلافه بقـدر مـا تكمن في تلـك الصـفات الطيبة للنفس، والـتي اكتسـبها من خلال العمـل على نفسـه. هكـذا يُقـدِّر الـرب كل الصـلاح الـذي فينا. هكذا يُقدِّرنا العقلاء. وعلى الإنسان نفسه أن يقدِّر كل ما أعطاه إياه الرب.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. The Way of Christ's Commandments. Spiritual Instructions of St. Arsenia of Ust-Medvedits. Part 3. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 10/27/2023. https://orthochristian.com/156944.html